الظاهرة القرآنية

تأليف الأستاذ مالك بن نبي

عرض وتحليل الأستاذ سعيد حمزة مكرم المحامي

فى مدخل هذه الدراسة يحدد المؤلف — شأن الباحث العلمى الجاد — موضوع دراسته بأنه (المشكلة القرآنية) وهو فى دراسته لهذه المشكلة الخطيرة لا ينساق وراء عواطفه كمؤمن بدين ، وإنما هو يقصد مخلصاً إلى تحقيق منهج تحليلى فى دراسة الظاهرة القرآنية ؛ لأن مثل هذا المنهج يحقق من الناحية العملية هدفاً مزدوجاً هو « أن يتيح للشبيبة الإسلامية فرصة التأمل الناضج فى الدين وأنه يوحى إصلاحاً مناسباً لمنهج التفسير القديم للقرآن » يدعوه إلى انتهاج هذا المنهج — مع ما يفرضه من يقظة واحتشاد — ذلك الواقع المؤسف للحياة العقلية الإسلامية فى هذه الأيام : « فهى تمر بمرحلة خطيرة إذ تتلقى النهضة الإسلامية كل أفكارها واتجاهاتها الفنية عن الثقافة الغربية » ، ليس فى شئون الحياة العملية فحسب بل فى المجالات الروحية والفكرية حتى العقائدية حيث ترجى الاصالة والخصوصية والإيجابية .

فعند المستشرقين العلم كل العلم !! والمناهج أقوم المناهج !! وهم وحدهم الأساتذة الكبار !! أما الثقافة الإسلامية فهى عند الشبيبة المثقفة نبع غاض معينه أو كاد ، وأما رواد هذه الثقافة فهم قوم لم يدركوا المنهج الديكارتى وإذن فلا سبيل إلى الاطمئنان إلى دراساتهم !!

وعلى ضوء هذا المنطق العجيب يمضى « المثقفون » !! وبأيديهم معاول مخربة من صنع أساتذتهم المستشرقين يشوهون بها وجه الثقافة الإسلامية حتى تبدو ظواهر متخلفة لا تراثاً جليلا حياً فى رصيد الفكر البشرى . وهذا هو الهدف الكبير المنشود للسادة جهابذة الاستشراق !!

ويمضى المؤلف فى استعراض الأزمة الفكرية والروحية التى أثارها فرض المستشرق « مارجليوت » وقت

أن كان يدعو إليه جامعيون كبار فى مصر ثم يعرج على مدى انعكاس هذه الأزمة على موضوع هذا الكتاب .

ففرض «مارجليوت» كما يقول (أراد أن يفرض على المشكلة « مشكلة تفسير القرآن » مسلكا ثورياً حين أدخل فى الوقت المناسب ما يشبه « الديناميت » الذى قد ينسف كل مناهج التفسير القديم) ، (ذلك التفسير القائم على المقارنة الأسلوبية معتمداً على الشعر الجاهلى كحقيقة لا تقبل الجدل) .

ومع ذلك فالمؤلف لا يلهث وراء عواطفه فهو لا ينكر أن هذا الأساس فى حاجة إلى إعادة النظر وبخاصة بالنسبة للمسلم غير العربى فهو يجاهر بأنه (منذ وقت طويل أيضاً تكتنفى عقائدنا فى هذا الباب بالتقليد الذى لا يتفق مع عقول المتعلقين بالموضوعية) .

وينظر من حوله إلى جهود المحدثين من المفسرين فلا يرى فيها — مع تقديره لقيمتها الكبيرة — منهجاً محدداً ونظرية متكاملة تحيط بقضية التفسير فجهودهم لا تعدو أن تكون صبغاً للتفسير القديم بصبغة عقلية جديدة ، « ومع ذلك فمشكلة التفسير تظل خطيرة بالنسبة لاعتقاد الفرد الذى شكلته مدرسة ديكارت من جهة وبالنسبة لمجموع الأفكار الدارجة التى هى أساس الثقافة الشعبية من جهة أخرى » .

ولعل من الواضح أن قضية الاقتناع العقلى للتعلم أزاء مشكلة التفسير ترتبط جزئياً بنظرية الظاهرة القرآنية .

ومن هنا كان لابد أن يتجه المؤلف إلى (أن يربط ظاهرة الإسلام فى خصوصها بالظاهرة الدينية فى عمومها) ثم يأخذ فى دراسة القرآن كظاهرة موضوعية قابلة للبحث العلمى المحايد لعل هذه الدراسة تنتهى بالباحث عن الحقيقة إلى الإيمان بأن الإسلام دين موحى به من عند الله . على أن يكون الوصول إلى هذه الغاية من خلال بحثه لشخص الرسول عليه السلام كشاهد حى على طبيعة رسالته .

وقبل أن يعرض بالبحث والدراسة لهذه الشخصية وهذه الرسالة التى نزل بها القرآن يأخذ فى دراسة الفكرة الدينية « كظاهرة » صاحبت الفكر البشرى منذ طفولته . وفى فصل « الظاهرة الدينية » يتابع المؤلف إخلاص العقل الإنسانى لهذه الفكرة واحتفاله الدائم بفلسفتها كلما ألحت عليه (المشكلة الغيبية) حتى أن علماء الاجتماع ليصفون الإنسان بأنه « حيوان دينى » .

ولكن هل الظاهرة الدينية مجرد « فقاعة » لا تكاد تطفو على سطح العقل البشرى حتى تذهب بدداً . . أم هى طبيعة أصيله فى ضمير الإنسانية؟،

وفى هذا المجال تتصارع نظريتان أولاهما غيبية والثانية مادية وإذن فماهو السبيل إلى حسم الموقف بحيث لا يكون ثمة تناقض بين الدين والعلم .

ويقرر المؤلف أنه لا تناقض بين الدين والعلم فى شأن هذه الظاهرة ، فالعلم لم يبرهن على عدم وجود الله أو وجوده — كما نسلم بذلك مبدئياً والنزاع هنا بين دينين : بين الألوهية والمادية ، بين الدين الذى يسلم بوجود الله وذلك الذى « افترض » المادة) .

وقد كان هدف هذا الفصل هو المقارنة المنطقية المحايدة بين هذين المذهبين الفلسفيين على ضوء عناصرهما المتجانسة التى تكمن فى فكرتهما عن الكون .

ويمضى المؤلف فى مناقشة المذهب المادى مناقشة علمية منطقية تنتهى بإثبات عجزه فمثلا هو عاجز عن تفسير الحتمية البيولجية وهو أيضاً لا يقدم تسوية مقبولا للازدواج النوعى لدى الإنسان إلى آخر نقاط الضعف فى كيانه ونتائجه .

وواضح أن المذهب المادى يقوم على « افتراض » مبدئى هو أن المادة هى العلة الأولى لذاتها .. هى موجودة وهى فى ذات الوقت موجدة نفسها .. هى نقطة البدء من حيث النشأة الأولى والتطور الأزلى ومن هذه النقطة يبدأ الماديون رحلتهم الطويلة مع تطور المادة مع ملاحظة أن المؤثر الوحيد الدائم طوال هذه الرحلة هو خاصة « الكم » ويأخذ المؤلف فى مناقشة هذا النظر مع مايستتبعه من وحدانية المؤثر وبين ما أثبته العلم الحديث فى نطاق التركيب الذرى ومايستتبعه هو الآخر من حالات وظواهر تناقض تسلسل النظر الأول .

ولعل هذا الفصل هو أكثر فصول الكتاب حاجة إلى كثير من التركيز الذهنى لمتابعة المعادلات والبراهين العلمية التى تتضافر كلها فى النهاية مع منطق المؤلف على كشف النقاب عن تهافت المذهب المادى .

ثم ينتقل المؤلف إلى بحث « المذهب الغيبى » بنفس الروح العلمى المحايد فلا يتردد فى أن يستهل بحثه بأن هذا المذهب يقوم هو الآخر على « افتراض » مبدأ متميز عن المادة هو الله وهو الخالق والمدبر والسبب الأول الذى يقول للشىء كن فيكون . فالمادة فى

منطلق هذا النظر مخلوقة وليست خالقة حديثة وليست قديمة — كما يقول علماء التوحيد — ثم يكون تطور هذه المادة « طبقا لأوامر إرادة توزع التوازن والاتساق اللذين قد يلاحظ علم البشر قوانينهما الثابتة ».

والمؤلف لايحاول الفرار مما قد يبدو لبعضهم مواطن ضعف فى المذهب الغيبي فهو يقول « ولكن بعض مراحل هـــذا التطور ستخفى على الملاحظات المألوفة لرجال العلم دون أن ينطوى المذهب من أجل هذا على نقص ما .فى هذه الحالات الاستثنائية نستعين بالحتمية الغيبية التى لا تعارض بينها وبين طبيعة المبدأ » ثم ينتهى المؤلف إلى أن ثمة حتمية مطلقة هى إرادة الله « يؤمن » بها المذهب الغيبي يقابلها حتمية الصدفة يفترضها هناك المذهب المادى .. وشتان بين حتمية حكيمة هادفة وأخرى عفوية غامضة .

ثم لاينسى فى ختام هذا الفصل أن يكرر ويؤكد أن الأمر لايتعلق هنا بالمقارنة بين نوعين من العلم بل عقيدتين ؛ عقيدة تؤله المادة وأخرى تؤمن بالله .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى بحث « الحركة النبوية » فيحمل على فكرة الانكشاف الباطنى التى ينادى بها « شيريه » فى كتابه كبار الواصلين ويأخذ من ظاهرة تتابع ديانات التوحيد دليلا يمكن دراسته لإدراك طبيعة النبوة « وجميع المظاهر الأدبية والروحية التى تصحبها ».

ثم يناقش « مبدأ النبوة » من خلال شاهده الوحيد الوثيق « النبى » « وفى محتويات رســـالته المتواترة المنزلة ».

والمشكلة عندئذ تقوم على هذا التساؤل .. هل الوحى صدى لعمليات نفسية ذاتية محضة أم هو ظاهرة موضوعية محسوسة مستقلة عن ذات النبى .

ويأخذ المؤلف فى كشف جوانب القضية من ناحيتها النفسية والتاريخية فيلاحظ أن بعث نبي ليس ظاهرة فردية بل ظاهرة مستمرة فى نطاق زمنى ذى بدء ونهـــاية ، فإن دل استمرارها وتواترها بنفس الكيفية على شىء فإنما يدل على قيامها كشاهد علمى يمكن الاستناد اليه فى تقرير مبدأ « وجود النبوة » ولعل منهج هيجل العلمى يسعفنا فى هذا المجال ، ويقف بالمرصاد للمحاولات المرتجلة المتهافة على التسليم مقدما باعتبار النبوة ظاهرة

نفسية عرضية أو مرضية !! وهذا تاريخ الأنبياء يؤكد أنهم كانوا نماذج إنسانية بلغت قمة الكمالات البدنية والخلقية والعقلية .

ثم يكشف عن الخلط الساذج الذى يتخبط فى ظلماته الباحثون فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد بحيث لايدركون الفارق الواضح بين النبوات الصادقة والرجم بالغيب ، والأنبياء و مدعى النبوة (ولقد تجلى هذا الخلط فى التعميمات المفرطة فى الدراسات الحالية للظاهرة النبوية) فبعد أن يفترض النقد الحديث متعسفا أن النبوة (ظاهرة ذاتية) يحاول دراستها من خلال نموذج غريب عنها هو « العراف » الذى يدور فى فلكه الذاتى ، بعكس « النبى » الذى (يرى ويسمع موضوعه خارج مجاله الشخصى)

ويأخذ المؤلف فى دراسة ظاهرة النبوة من خلال النبى « أرمياء » على ضوء النظرية الموضوعية عن الحركة النبوية فيكشف عن ذلك القهر الذى يأخذ بمجامع نفس النبى وهو قهر مطلق دائم يحدد له سلوكه النهائى الذى يشكل جوهر حياته .. وثمة قهر آخر بسيط على ذات النبى هو موقفه من أحداث عصره التى تخالف موقف معاصريه حتى ليبدو موقفه ذاك خروجا على التفكير السليم ، ومصدر هذا الموقف ليس على الإطلاق نظرة عميقة خاصة بالنبى دون سائر الناس كما يقول النقد الحديث بل موقف تمليه عليه إرادة قاهرة فى صورة وحى

وقد رأى المؤلف أن يلم فى سرعة وذكاء بمصادر الإسلام باعتبارها الأصول المدونة أو التاريخية وخاصة ونحن بصدد دراسة نقدية للإسلام وبعد أن يستعرض مسألة تدوين القرآن بما تعكسه من لفتات يكبرها التاريخ ويزكيها الطابع العلمى يلقى أضواءه على موقف علماء المسلمين من الحديث باعتباره المصدر الثانى للاسلام وينتهى إلى أن القرآن باعتباره (وثيقة تاريخية مطلقة الصحة) والحديث (مع الاصطلاحات المتواضع عليها بين علماء الحديث) يعتبران منبعين يتدفقان بالحقائق التى يطمأن إليها فى بحث الظاهرة القرآنية

وتحت عنوان « الرسول » عقد فصلا خاصا لدراسة الذات المحمدية وهو يصطنع فى بحثه هذا مقياسين أولهما يتعلق بشخص النبى نفسه ويرجع ثانيهما الينا ، وذلك ليتسنى له الكشف

عن طبيعة لارتباط بين الذات المحمدية وبين الظاهرة القرآنية وفى سبيل هذه الغاية يتتبع المؤلف كثيرا من التفاصيل الى تعطى الصورة الواضحة للنبى عليه السلام فى أدوار حياته ؛ فقد كان عليه السلام قبل بعثته مجرد حنيفى بسيط يقسم وقته — حسب كلامه هو — بين التأمل فى عبادة الله والتأمل فى جميل صنعه بل أن موقف الذات المحمدية لم يكن عند ظهور الوحى لأول مرة والمرة الثانية مطبوعا بأمل القيام بدعوة ما بل كان كل همه أن يلتمس فضل الله الذى استشعره منذ الوحى الأول وهو ما يؤكد فى نظر المؤلف بصورة قاطعة استقلال الظاهرة القرآنية عن ذات النبى وأنما هو بتكليف توحى به قوة غالبه على قوى نفسه .

ويمضى المؤلف فى عرض سريع ولكنه دقيق لمواقف نفسية يعكسها الواقع التاريخى للنبى فى المرحلة المدنية وعلى طول هذه الرحلة منذ ولادته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى استطاع المؤلف بخطوطه البارعة المعبرة أن يجلو صورة النبى النفسية ، وحين تطالعنا هذه الصورة الجليلة المشرقة لهذا الإنسان العظيم لا يسعنا إلا أن نحترم شهادته على نفسه فى أفعاله وفى أقواله على السواء وهذا هو أحد مقياسى المؤلف فى بحثه للظاهرة القرآنية .

وبعد فلو أردت أن أتتبع فصول هذا البحث القيم عارضا ومحللا — ولو فى إيجاز — لاستنزق ذلك من المجلة صفحات هى من حق أساتذتنا الكتاب وأرجو أن تكون هذه العجالة داعية إلى قراءة كتاب الظاهرة القرآنية الذى يرجو له مؤلفه الجليل أن يفتح باب المناقشة الدينية على مصراعيه بصورة موضوعية تعين المتعلم المسلم على أن يبنى بنفسه الأساس الضروى لإيمانه .

وإذا كان الأستاذ مالك بن نبى قد أطلق فى الأفق الغربى بالأصل الفرنسى لهذا البحث قبسا يهدى إلى الرشد كل من التقى به على صفاء وحيده وإنصاف .

فإن الأستاذ عبد الصبور شاهين قد نهض بدوره بأمانته الجليلة فجاءت ترجمته مشرقة دقيقة واضحة وإنها لثقيلة إلا على الذين يملكون ناصيتى اللغتين الفرنسية والعربية .

ولقد أضاف بصنيعه هذا إلى المكتبة العربية الإسلامية كتابا كان ينبغى أن يحتل منها مكانه المرموق .